٥ — بديع الزمان الهمذانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

عقيدته

وكان سنى الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم (١) قال فى الديوان متغزلا :

ذات جفون ضعفت كذهب المعتزلة

وله قصيدة يرد فيها على الخوارزمى قوله فى الصحابة . ومن أجل ذلك اتهم فى نيسابور بميله عن العلويين ، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره فى رثاء الحسين ، فهو على حبه آل البيت لا ينهب مذهب الشيعة فى الخلافة وما يتصل بها . يقول فى الديوان :

يقولون لى لا تحب الوصى ... فقلت الثرى بفم الكاذب
أحب النبى وأهل النبى ... وأختص آل أبى طالب
وأعطى الصحابة حق الولاء ... وأجرى على السنن الواجب
فان كان نصبا ولاء الجميع ... فانى كما زعموا ناصبى
وان كان رفضا ولاء الوصى ... فلا يبرح الرفض من جانبى . الخ

وفى رسالة واحدة كتبها الى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع فى هراة ويحذر أن يفيها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة:(٢)

« ورجع صاحبى آنفا من هراة فذكر انه سمع فى السوق صبيا ينشد أن محمدا وعليا ، لعناتها وعديا . فقلت ان العامة لو علمت معنى تيم وعدى ، لكفتنى شغل الشكاية ، وولى النعمة شغل الكفاية ، ويل أم هراة ، أنصب الشيطان بها هذه الحبالة ، وصرنا نشكو هذه الحالة . والله ما دخلت هذه الكلمة بلدة الا صيت عليها الذلة ، ونسخت عنها الملة ، ولا رضى بها أهل بلدة الا جعل الله الذل لباسهم ، وألقى بينهم بأسهم . هذه نيسابور منذ فشت فيها هذه المقالة فى خراب واضطراب الخ ،

أدبه

قدمت فى المقالات الماضية طرفا من سيرة الهمذانى وأخبار أسرته وأحوال عصره ، وأبين الآن عن أدبه : نثره وشعره

كان أحمد بن الحسين الهمذانى أعجوبة فى ذكائه وحفظه ، فيسر له علم واسع باللغة والأدب . وهو يقول فى حديثه عما شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى : « فقلت يا أبا بكر هذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها ، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها ، فخذ غريب المصنف ان شئت ، واصلاح المنطق ان أردت ، والفاظ ابن السكيت ان نشطت ، وبجمل اللغة ان احترت ، فهو الف ورقة ، وادب الكاتب ان اردت ، واقترح على اى باب شئت من هذه الكتب حتى اجعله لك نقدا ، واسرده عليك سردا ، فقال اقرأ من غريب المصنف رجل ماس خفيف على مثال مال وما أمساه فاندفعت فى الباب حتى قرأته فلم اتردد فيه ، وانيت على الباب الذى يليه ، ثم قلت اقترح غيره ، فقالوا كفى ذلك ، فقلت له اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا اطالبك بسواه ، ولا اسألك عما عداه ، فوقف حائرا ، وخمدت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت يا أبا بكر هات العروض ، فهو أحد أبواب الادب وسردت منه خمسة أبحر بالقابها واياتها ، وعللها وزحافها ، فقلت هات الآن فاسرده كما سردته ....»

وقد أعجب الناس بذكائه وبديهته ، وتحدى هو الناس بهما فجاء كثير من منشآته على البديهة ، ولو روى فيه لجاء خيراً من ذلك .

قال الثعالبى فى اليتيمة : « ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتا ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفا ولا يخل معنى ، وينظر فى الاربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هداً ، ويسردها سرداً . وهذه حاله فى الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع ، وباب غريب ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه ثم يرجع الى الأول ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم ، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة . ويقترح عليه

(١) الرسائل ص ١٦١ (٢) — ص ١٨٢

كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف على رِيق لايبلعه ، ونفس لايقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة . . . . وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع ، الى عجائب لا تحصى ، ولطائف تطول أن تستقصى . »

لدينا من آثار الهمذانى ديوانه ورسائله ومقاماته . فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت ، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة فى المدح مدح بها من الملوك والامراء : شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، والسلطان محمود الغزنوى ، وبنى فريغون وخلف بن أحمد ، وبنى ميكال . ومن الوزراء الصاحب بن عباد ، وأبا نصر بن زيد ، ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة . وهو يجرى فى المدح على السنن المعروف ، ولكنه لايلتزم الغزل فى أول المدائح ، ولا يطيل فى معظمها .

ومن جيد شعره فى المدح القصيدة التى أولها :

على ألا أرى العيس والقتا ... وألبس البيد والظلما . والليلا الخ (١)

وقوله فى بنى فريغون :

ألم تر أنى فى نهضتى ... لقيت الغنى والمنى والأميرا
وثلما التقينا شممت التراب ... وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ... ن يعلو سجايا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرمات ... يد أولا واعتذار أخيرا
اذا ما حللت بغنائهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا

وأما الغزل فله فيه غير مائى قصائد المدح ست قطع تحوى واحداً وعشرين بيتا . والبديع ليس غزلا ، ولكنه حاكى الشعراء فى ضرب ألفوه وافتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر .

وله قطع فى وصف الأسد ، والليل ، والمجمر . . وقطعته فى وصف الليل نموذج من شعره المرتجل . ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية :

أنعت ليلا ذا سواد كالسبج ... مخدر الصبح خدارى الدعج
أدرج العالم فيه لاندرج ... أو نسج الحرمان منه لاتنسج
ليلا تحرون النجم قارى النهج ... البعر فيه نقطة لو انفرج
والدهر من أجزائه ولا حرج ... أيسر مافيه الشهور والحجج الخ

ويجود شعر الهمذانى فى الرثاء والمواعظ . فى ديوانه ست مراث إحداها فى واقعة كربلاء ، وله اثنتان وعشرون قطعة صغيرة فى المواعظ تنبىء بما فى نفسه من الانقباض والحزن والتشاؤم كما قدمت فى الكلام عن أخلاقه . ومن مرثية الحسين بن على :

يالمة ضرب الزمان ... م على معرسها خيامه
لله درك من خزامى ... م روضة صارت ثمامه
فوربه قامت به ... للدين أشراط القيامه
لمضرج بدم النبو ... ة م ضارب بيد الامامه
متقسم يطأ السيوف ... م مجرعا منها حمامه
منع الورود وماؤه ... منه على طرف الثمامه الخ

وقد قدمت آنفا مرثية الخوارزمى التى أولها :

حنانيك من نفس خافت ... وليك من كمد ثابت (١)

ويقول فى المواعظ ، وهو فى هذا يشبه أبا العتاهية :

ياحريصا على الغنى ... قاعدا بالمراصد
ليست فى سعيك الذى ... خضت فيه بقاصد
ان دنياك هذه ... لست فيها بخالد
بعض هذا فانما ... أنت ساع لقاعد

ويقول :

ياقلب ما أغفلك ... عن حركات الفلك
ويحك هذا الردى ... اليك يسعى ولك
انت على سفرة ... يشيب منها الحلك
من انتجى نهجه ... بغير زاد هلك

ويقول :

أجدك ماتنبه للمنايا ... كأنك واجد عنها ملاذا
لذاك على الغنى تزداد حرصا ... وفى حلبات سكرتها نفاذا
هب الدنيا تحقق ماترجى ... من الآمال ويحك ثم ماذا ؟

ونراه يتكلم بلسان الصوفية فى القطعة التى أولها :

ان لله عبيدا ... فزوايا الأرض غبرا الخ (٢)

ويقول فى صديق له حبس :

مالى أرى الحر ذاهبا دمه ... ولا أرى الذل ذاهبا ذهبه
أفلح من لؤمه وسيلته ... وليس ينجو من جرمه حسبه
من شاء ألا يناله زمن ... فليكن العرض جل ما يهبه
أراحنا الله منك يا زمنا ... أرعن يصطاد صقره خربه

(١) الديوان ص ٤

(١) الديوان ص ١٢ (٢) ص ٣٤

يا ساغبا جائع الجوارح لا يسكن الا بفاضل سغبه
ياضرما فى الأنام متقدا والجود والمجد والندى حطبه
ياصائدا والعلى فريسته وناهبا والجمال منتهبه
ياسادتى لا تلن عظامكم لدهر الدهر ان يهج كلبه

بل هو حين يحض على التمتع بالدنيا ، واهتبال فرص العيش ينم عن حزن وتشاؤم يذكرنا بعمر الخيام فانما يلهو ليلهى تباريح الحياة

انما الدهر الذى يصـ دقنى حر المصاع
كالنى مدا وأجزيـ ه من الحلم بصاع
فاغنم الايام ما أل فيتها خضر المراعى
انما نحن من الده ر بواد ذى سباع
لاتدع من لذة العي ش عيانا لسماع (١)

ويقول فى قصيدة يمدح فيها ابا جعفر الميكالى :

تستبيح الدهر والاي ام منا تستبيح
ضاع مانحميه من ا نفسنا وهو يبيح
نحن لاهون وآجال المنى لاتستريح
ياغلام الكاس فاليا س من الناس مريح
أنا يادهر بأبنا ئك شق وسطيح الخ (٢)

ولهمذانى قطع كثيرة فى الالغاز والمعميات ، وكان الرجل نادرة فى الذكاء والبديهة فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب . وفى الديوان منه اثنان وعشرون ، ويكثر فى شعره الترجمة عن الفارسية . وفى الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة . وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبى المسلمين فى ايران وما يجاورها ، اذ كان الشعر الفارسى قد بلغ أشده ، وكانت العربية لا تزال لغة العلم والأدب . وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين ، ولقب لذلك بذى اللسانين ، وفى يتيمة الثعالبى أمثلة من هذا . هذه الترجمة تهم دارس الأدبين العربى والفارسى . ولكن يقلل خطرها أننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها ، ولم أعرف من الشعر الفارسى الذى ترجمه البديع الا قطعة أثبتها محمد عوفى فى كتاب لباب الألباب فى ترجمة المسطق الشاعر الفارسى ، ويقول عوفى ان الصاحب بن عباد أمر البديع بترجمتها ، فقال على أية قافية ؟ فقال الطاء . قال ومن أى بحر ؟ قال أسرع يابديع ، فى البحر السريع ، فترجمها ارتجالا والأبيات :

بلك بوى بد زويدم أزدوزلفت جون زلف زرى اى صنم بشانه
جونانش بسختى همى كشيدم جون موركه كندم كشدنجانه
باموى بخانه شدم بدركفت : منصور كدامست أزين دوكانه

والترجمة :

سرقت من طرته شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلت بها مثقلا تدلح النمل بحب الحناط
قال أبى من ولدى منكما كلا كما يدخل سم الخياط

ويرى أنه تصرف فى ترجمة البيت الثالث . وأصله : « ذهبت الى الدار بالشعرة . فقال ابى : منصور أى الاثنين ؟ . وفى الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة . (١)

ومن الترجمة التى يتجلى فيها اسلوب الفارسية هذان البيتان فؤادك أين ؟ سباه . بماذا بمقلته . من ؟ غزال رعيب سلابا نعم . أين ؟ وسط الطريق متى ؟ اليوم . هذا سلاب غريب

وهى تذكر دارس الأدب الفارسى بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة الصفوية فى رثاء آل البيت

وفى الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية ، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملمع فى عرف أدباء الفرس والترك وهو كثير عندهم (٢) ويكثر فى شعره المجزوء ، ولا سيما الهزج والكامل . وسأعود الى هذا حين الكلام فى سجعه .

وأحسب بديع الزمان نظم معظم شعره فى أوائل حياته . ففى الديوان أبيات نظمها وهو فى الثانية عشرة ، وهو يذكر سن العشرين فى بعض شعره :

إنى بعشرين تصاريفها بعد الثمانين تعرفتها

ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن احمد :

ألم يك فى خمس وعشرين حجة تسنمتها هاد لمثلى الطرائق

ثم هو يلعن النظم فى كلامه عن الخوارزمى فى بعض رسائله وذلك دليل على أنه مال عن الشعر : « هو خوارزمى ، ولست من خوارزم ، وهو شاعر ولعن الله النظم » وأوضح من هذا قوله فى رسالته الى ابن ظهير رئيس بلخ

« كنت نويت أ لا أقول الشعر فأبت النملة الا الدبيب . وأجدنى قد اكتهلت والكهل قبيح به الجهل . » (٣)

يتبع

عبد الوهاب عزام

(١) الديوان ص ٥٢ (٢) ص ٢٠

(١) لباب الالباب ص ١٦ والديوان ص ٤٨ (٢) الديوان ص ٦٤
(٣) ١٤٤ من الرسائل — ط الجوائب